القصة الرابعة:

نصر الدين خوجه -(جحا)

(جحا)*

وُلِدَ نصرُ الدينِ في بيتٍ طينيٍّ أسودَ، في مدينةِ أقْ شَهَرْ، وتربّى في ظلِّهِ.

كان طفلاً متفتحَ القلبِ والذهنِ، وكانَ ذكياً جداً!

كانَ يدقّقُ في معنى كلِّ كلمةٍ، ويصلُ إليهِ.

وعندما كَبِرَ صارَ يذهبُ إلى مدرسةِ الحيِّ.

تعلَّمَ القرآنَ، وتعلَّمَ العربيةَ.

لمعَ ذكاؤهُ، وصارَ ولداً شديدَ الحيويةِ، مشاكساً تصعبُ السيطرةُ عليهِ!.

تفوُّق

كانَ نصرُ الدينِ يمزحُ كثيراً؛ ولأنهُ متفوقٌ في دروسهِ كان شيخهُ قد عيَّنَهُ عريفاً على زملائهِ.

كان يدرِّسُ لهمْ (الألفَ باءْ)، فأوجدَ طريقةً جديدةً للتدريسِ!

كان يُقْرِئُ التلاميذَ كلَّ حرفٍ في جوقةٍ جماعيةٍ، وبإيقاعٍ موسيقيٍّ حماسيٍّ، فمثلاً:

---

* يعرف جحا بالأدب التركي بـ (نصر الدين خوجة).

حرفُ الدالِ (د) كان يُقْرِئُها هكذا:

دال: دُبْ.. دُبْ.. دُرْ دَارَكْ.. دُبْ.. دُبْ!!

وحرفُ الزاي (ز) يُقْرِئُها هكذا:

زَايْ: زُرْ.. زُرْ.. زُرْ زَرْعَكْ.. زُرْ.. زُرْ!!

وحرفُ الشِّينِ (ش) كان يُقْرِئُها هكذا:

شِيْنْ: شُدْ.. شُدْ.. شُدْ عَزْمَكْ.. شُدْ.. شُدْ !! ... ... وَهكَذا ... ...

عندما جاءَ شيخُهُ سمعَ هذهِ الجوقةَ الغريبةَ، تحيَّرَ في البدايةِ، ثم عَرفَ أنهُ مِنْ اختراعِ نصرِ الدينِ.

دخلَ الشيخُ قائلاً: نصرُ الدينِ! ما هذا ؟!

أعطى نصرُ الدينِ إشارةَ السكوتِ إلى الجوقةِ، وركضَ حتى وقفَ أمامَ شيخِهِ باحترامٍ ولخّصَ الموقفَ قائلاً: يا شيخي! الأولادُ ينعسونَ!! وبعضهُمْ كانوا يتكلمون، مِنْ أجلِ ربطِ الجميعِ بالدرسِ وجدتُ هذهِ الطريقةَ!

قال الشيخُ: الآنَ كلّهُمْ في غايةِ السعادةِ!! دُبْ.. دُبْ.. تلعبونَ!!!

سكتَ نصرُ الدينِ ثم أجابَ فجأةً: هذهِ خطةُ تعليمٍ خاصةٍ للقرنِ العشرينَ يا شيخي!

قبلَ أنْ يحينَ وقتهُ نحنُ نرتبُ الأمرَ! وهذا دليلٌ على أننا في خُطَطٍ متقدمةٍ..!

لمْ يفهم الشيخ منْ كلامِ نصرِ الدينِ أيَّ شيءٍ، فقالَ: لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ!

وأردفَ قائلاً: ولدٌ غيرُ نافعٍ، على الأغلبِ يتكلمُ بلسانِ العصفورِ!

وبعدَ ذلكَ اليومِ تركَ الشيخُ تلميذَهُ نصرَ الدينِ وَشَأْنَهُ.

مرحلة جديدة

كانَ نصرُ الدينِ على وَشْكِ إنهاءِ المدرسةِ.

كانَ قد تعلمَ أشياءَ كثيرةً، واكتسبَ خبرةً.

في أحدِ الدروسِ كان شيخُهُ قدْ قالَ: الإنسانُ الصالحُ هوَ الذي يكونُ صادقاً في وفاءِ دَيْنِهِ!

فكَّرَ نصرُ الدينِ في هذا القولِ أياماً طويلةً. ثم طلبَ من شيخِهِ إيضاحاً، فقالَ الشيخُ: الدَّيْنُ نوعانِ، دَيْنٌ مستحقٌّ للهِ، ودَيْنٌ مستحقٌّ للعبدِ!

وتابعَ الشيخُ موضحاً: فالذي لا يُؤَدِّي الأولَ، لا يؤدِّي الثانيَ! ولا يمكنُ الاعتمادُ على ذلكَ النوعِ منَ الإنسانِ. ومن ناحيةِ دَيْنِ العبدِ، فعدمُ الوفاءِ بهِ يعدُّ ذنباً كبيراً جداً عندَ اللهِ.

وجدَ نصرُ الدينِ هذا الإيضاحَ غيرَ كافٍ، فأرادَ أنْ يُرِيَ كلَّ

واحـدٍ من الناس بطريقـتِـهِ الخـاصـةِ مـا هُوَ الدَّيْنُ، و مـا هِيَ المسؤوليةُ!!

نصر الدين خوجه في السوق

وقفَ نصرُ الدينِ خوجَه في السوقِ وبدأَ ينادي: زَيْتُون بالدَّيْن.. زَيْتُون بالدَّيْن!

كانَ الناسُ يذهبونَ ويجيئونَ ظناً منهمْ أنَّ نصرَ الدينِ خوجَه يمزحُ!

ولكنهُ كانَ لا يبيعُ للذينَ يريدونَ الشراءَ نقداً!

بعدَ مدةٍ جاءَ شابٌّ وقالَ: أَعْطِنِي نصفَ كيلو بِالدَّيْنِ.

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: تذوَّقْ طعمَهُ ثم خُذْ..!

قالَ الشابُّ: لا حاجةَ لذلكَ.

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: لا يمكنُ. لا أبيعُ قبلَ أنْ تتذوقَ!

قالَ الشابُّ: أنا صائمٌ!!!

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: أيُّ صيامٍ هذا ؟! مضَى على انتهاءِ رَمضانَ ستةُ أشهرٍ.

قال الشابُّ: لمْ أستطعْ الصيامَ هذا العامَ، فلذلكَ أقضي ما عليَّ!

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: لا أبيعكَ زيتوناً!

قالَ الشابُّ: لماذا ؟!

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: أنتَ أخَّرْتَ دينَ اللهِ ستةَ أشهرٍ، فلا أثقُ في دَيْني الذي عليكَ؛ لأنَّ شيخي كانَ قالَ لِيَ: الذي لا يُوْفي دَيْنَ اللهِ لا يُوثَقُ بِهِ في وفاءِ ديونِ الناسِ!

ودرسٌ آخر

الشابُّ الذي خسرَ في الدرسِ الأولِ، أرادَ أن يختبرَ نصرَ الدينِ خوجَه، فقالَ:

يا شيخي أرجو المعذرةَ! هلْ تتفضلُ بقراءةِ هذهِ الرسالةِ لي ؟!

أخذَ نصرُ الدينِ خوجَه الورقةَ، ورأى أنها ليستْ رسالةً، بلْ سندُ تمليك! لكنهُ كَيْ يعطيَ للشابِّ درساً آخرَ قرأَ سندَ التمليكِ كما تُقْرأُ الرسالةُ تماماً:

(رسالةٌ إلى حضرةِ معاليكُمْ.. يا والديَ المحبوب! أهدي إليكمْ سلامي منْ قلبي المخلصِ.. السلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ. ثم أَلْثِمُ يديكَ المباركتينِ، وأقبِّلُ يدَيَّ أُمِّيَ الحبيبةِ ...)

وهكذا بدأَ نصرُ الدينِ خوجَه، وتابعَ قراءةَ الرسالةِ!

فقاطعهُ الشابُّ ظناً منهُ أنهُ وجدَ فرصةً للنيلِ منهُ، وقالَ: دقيقةً واحدةً أيُّها الشيخُ المُحْتَرَمُ!!

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: ماذا هناكَ يا ولدِي ؟!

قالَ الشابُّ: هذهِ التي تقرؤها ليستْ رسالةً حتَّى...

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: إذنْ ماذا تكونُ ؟!

قالَ الشابُّ: هذهِ سندُ تمليكٍ!

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه: يا بنيَّ قُلْ هذا منَ البدايةِ كَيْ أقرأَها حَسْبَ ذلكَ!

ظنَّ الشابُّ أنهُ أمسكَ بنصرِ الدينِ خوجَه تماماً، فتثاقلَ عليهِ بكلِّ ما لديهِ من ذكاءٍ وقالَ: يا شَيْخ... يا شَيْخ! اخجلْ من عمامتكَ! أنتَ لا تميِّزُ سندَ التمليكِ منَ الرسالةِ!!

قالَ نصرُ الدينِ خوجَه مبتسماً: أيُّها الولَدُ الغبيُّ! إذا كانتِ الْكَرَامةُ في العمامةِ، خُذْها والْبَسْها! وإنْ كنتَ رجلاً اقرأْ أنتَ سندكَ بنفسكَ. ووضعَ العمامةَ على رأسِ الشابِّ!!

كانَ الشابُّ قدْ خسرَ في هذا أيضاً، فابتعدَ وهوَ يشكرُ نصرَ الدينِ خوجَه، وقدْ عزمَ على أنْ يوفِيَ دَيْنَهُ دونَ تأخيرٍ، ولا يستهزِئَ بأحدٍ، وألاَّ يرى الفضيلةَ والعلمَ في الهيئةِ والمظهرِ، ولا في الرُّتْبَةِ والوجاهَةِ.